دراسة علماء الغرب

لمذهب الصوفية

محاضرة الاستاذ نيكلسن اوري مدرس التصوف بجامعة كمبردج بانكلترا وعضو الاستاذ
نيكولسن المستشرق المعروف واستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج القاها بنادي
الشبان المسلمين بالقاهرة بدعوة من جماعة النشر والترجمة وعربها السيد
محمد الطنبمي التمتاز في شيخ السادة النقشبندية الصوفية بمصر

امتاز القرن التاسع عشر في الغرب بالتطور السريع الذي ظهر في الأخذ بطرق التحليل العلمي . وازدياد علم الناس ازدياداً هاماً بالظواهر الطبيعية يضاف الى هذا ما بدا من ضعف في الاعتقاد بالمذاهب والعقائد الدينية القديمة. تلك العقائد التي ظلت موضع التقدير والاحترام على مرّ الأزمان وكرّ الأعوام . ولما أثبت لنا علم طبقات الأرض ما لم نكن نتصوره أو نحلم به عن كرتنا الارضية وما عمرته من دهور وأحقاب . وكشف لنا علم الفلك عن ذلك الفضاء اللانهائي . وذلك الزمن الذي حار في حسابه الانسان . والذي لا يعدو ما سجله التاريخ منهُ الاّ بمقدار لحظة او كلمح البصر . لما أثبت العلم كل هذا . هوى نجم الدين . وضعفت العقائد . وكاد يطغى على العالم سيل المادية الجارف. فيكتسح في سبيله جميع الآراء الفلسفية والدينية — غير أنهُ في بداءة القرن الحاضر أخذت هذه الحركة الفكرية في التراجع. وبدأ يحل محلها الايمان بالله . والاعتقاد بان هذا الكون لم يخلق عبثاً . وفي الوقت نفسه ظهرت هناك بوادر تدل على الرغبة في البحث وراء الحقيقة في الديانات الاخرى . واشتدت هذه الرغبة حتى فاقت نظيرتها في الغرب وبوجه خاص فيما يتعلق بالناحية الصوفية من هذه الديانات . فلما استرعت اهتمام فريق من الناس طفقوا يبحثون في حياة وسير عظماء الدينيين من رجال ونساء . ليستخلصوا من حياتهم وسيرهم الدليل المباشر على صحة ما اتبع هؤلاء الناس من ملل وارتضوه من عقائد . هم أدرى بها وأعلم. هذا إلى أن وقعت الحرب العظمى فجاءت دافعاً جديداً للبحث عن الحقيقة. إذ كانت تلك الوحشية . والمأساة الصادعة التي تمثلت في هذه المجزرة البشرية أشد ما تكون باعثاً على أن يتطلب الناس الخلاص والاطمئنان بالالتجاء الى قوة روحية تفوق قوى البشر وتسيطر عليها

ولم تعالج دراسة الصوفية بالحماسة العظيمة أو الدقة في البحث بمثل ما عولجت به في أيامنا هذه . على أن الاحوال الحاضرة هي خير فرصة ملائمة لتقدم هذه الدراسة والسير بها إلى الأمام — وليس الغرض من هذه العجالة الاّ وضع ملخص وجيز للعمل الذي قام به حتى الآن جماعة العلماء الاوربيين . وبيان خطتهم التي اتبعوها في تناولهم لمذهب الصوفية

وأول رسالة هامة ظهرت في اوربا عن الصوفية هي رسالة (تولك) التي نشرت باللاتينية سنة ١٨٢١ — ويعتبر هذا الكتاب الآن اثراً قديماً . غير انهُ لا يزال موضع اللذة لقارئهِ. وفي سنة ١٨٦٧ — نشر (ادوارد بهار) استاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج وأحد مترجمي القرآن الى اللغة الانكليزية كتابهُ الصغير الذي سماه (الصوفية الشرقية) . وقد كتب فون كرامر عن الصوفية كتابة مختصرة في مؤلفه (Die Von Islam) وكذلك (جولدزر) في كتابه القيم (الدراسة المحمدية) ثم ضمن كتابه (Uarenchen Islam) معلوماته الهامة في الموضوع . أما (ف. ج. و. جب) الذي خسر العالم بموته السابق لاوانه اكبر عالم محقق مدقق . فقد رسم لنا في سفره الجليل (تاريخ الشعر العثماني) حدود الصوفية . ووضح لنا معالمها التي تنير السبيل . كما اشار الى الصوفية في مناحيها المختلفة العلامة (ف. ج. برون) في كتابه القيم (تاريخ الادب الفارسي) . كذلك كتب عن الصوفية العلامتان (د. ب. مكدونالد) و (ي. س. مارجليوث) الاول في كتابه (نمو الدين الاسلامي) والثاني في (الاسلام في بدء ظهوره) — ومن ثمَّ بقي على الاستاذ (نكلسون) ان يأخذ على عاتقه بعد ذلك التوفر على الصوفية وجعلها الموضوع الاساسي لبحوثه

ولد الاستاذ (نكلسون) الذي يشغل الآن كرسي اللغة العربية بجامعة كمبردج في سنة ١٨٦٨ . وقد عكف وهو مجاور في كمبردج على دراسة المؤلفات الاغريقية واللاتينية الشهيرة فتفوَّق فيها . وكان لهذه الثقافة العالية اثرها الذي لا يقدَّر . فلما وجه عنايته الى دراسة اللغة العربية والفارسية تمكن منهما كل التمكن . ففي سنة ١٨٩٨ وضع مؤلفه الاول (مختارات نثمية من ديوان الشمس التبريزي) وفي مقدمة هذا الكتاب اثار بحثاً في منشأ الصوفية . وهو موضوع لم تحل عقدته الى الآن . وقد دحض نظريتين . احداهما ما يمكن ان يعبر عنها بالنظرية الايرانية . لانها تعتبر فارس في جاهليتها (اي قبل ظهور الاسلام) هي المهد الروحي للصوفية ومبعث وحيها . والنظرية الثانية تعزو مثل هذا الى الديانات الهندية — اما الاستاذ (نكلسون) فانهُ وجد في الفلسفة الاغريقية ما يبعثهُ على الاعتقاد بأنها مصدر كثير من الآراء الصوفية. وقد عمل على نشر هذه النظرية بعد ذلك (ونزوك) و(اندريا) الاول في ترجمته كتاب التيمة تأليف (يارهبريوس) والثاني في رسالته الجليلة (الشخصية المحمدية) ومما نشره الاستاذ (نكلسون) عن الصوفية رسالة دقيقة عنوانها « الصوفية في الاسلام » شملت الموضوع برمته وكان لها الحظ الوافر لدى جمهرة القراء . ثم كتابه « بحوث في الصوفية الاسلامية » ومحاضرات تتناول نظرية الشخصية في التصوف ومقالات متعددة في دوائر المعارف والصحف . وقد كتب مقالاً شائقاً عن الصوفية في « تراث الاسلام » الذي نشر في العام الماضي . ثم هذَّب او ترجم الكتب العربية والفارسية الآتية . كتاب اللمعة للسراج وكشف المحجوب

للهجويري وترجمان الاشواق لابن العربي وتذكرة الاولياء للعطار والمثنوي لجلال الدين الرومي وكذلك يعد الاستاذ (لويس ماسينيون) في الغرب حجة في الصوفية . وكانت مباحثه تدور حول سيرة (منصور الحلاج) وشخصيته وآرائه . ويعتبر المؤلف الذي نشره خير مجموعة زادت من علمنا عن الصوفية ومناحيها المختلفة . وقد بلغت مباحثه ذروتها بظهور اهم مؤلفاته وهو كتاب « الحلاج شهيد الصوفية الاسلامية » في سنة ١٩٢٢ . وكان قد نشر قبل ذلك مؤلفيه «الطواسين» الذي ظهر سنة ١٩١٣ و «اربعة الاصول غير المنشورة الخاصة بتاريخ حياة الحلاج» الذي ظهر سنة ١٩١٤ . وفي سنة ١٩٢٢ ايضاً نشر مقالة عن مصادر الكتب الفنية الجامعة للصوفية الاسلامية . وفي هذين الكتابين بحث بحثاً مستفيضاً في تاريخ تطور الصوفية . وخطأ النظريات الاغريقية والايرانية والهندية التي اشرنا اليها آنفاً . وأكد لنا ان اساس الآراء الصوفية وتعاليمها هو القرآن . وفي سنة ١٩٢٩ نشر (ماسينيون) «مجموعة الاصول الصوفية» وفي العام الماضي مقتطفات من « ديوان الحلاج »

ويجدر بنا ان نذكر المجهود الذي قام به المستشرق الاسباني (آسين بلاسيوس) فقد نشر في العام الماضي نبذته الجميلة عن المذهب الفلسفي لابن العربي . ولما كان في كتابه هذا قد استقصى آراء الاسلامية في دانتي . فقد خرج هذا السفر كتاباً قيماً شيئاً بمعلوماته . ثم هناك الآنسة (مرغريت سمث) وهي كاتبة دخلت في هذا الميدان حديثاً ويرجى منها كثيراً فكتابها عن رابعة العدوية يعتبر آية العلم والابداع ثم لما ظهر كتابها المعنون «بحوث في الصوفية الشرقية والغربية» ثار صيتها كل مثار

ولا يزال هناك متسع كبير للعمل اذ من المرغوب فيه على الخصوص ان تطبع النصوص الصحيحة لما كتبه جماعة الصوفيين الاوائل امثال (الجنيد) و (الترمذي) و (المحاسبي) وعندها فقط تصح الدراسة العلمية لتاريخ الصوفية في متناول الطالب العادي الذي لا يستطيع الالتجاء الى دور الكتب الاجنبية بسبب قصر وقته او ضيق ذات يده

اما المطبعة المصرية التي قامت حتى الآن بخدمات جليلة للجمهور بما اخرجته من اشهر تصانيف الادب العربي فانها تستطيع ان تأخذ على عاتقها مسألة هذه المؤلفات

على انهُ مما لا نزاع فيهِ ان التفقه في الدين الاسلامي والتمكن من دراسة القرآن الدراسة الوافية هي خير عدة لكل من اراد ان يتبحر في الصوفية ويلم بأطرافها

والنهضة العلمية التي تخطو الآن في مصر خطواتها السريعة . ستتمخض بلا مراء عن علماء اكفاء لا تعوزهم الرغبة في متابعة البحث الذي قام به جماعة العلماء الغربيين في الصوفية وهم بلا شك سيذللون كثيراً من الصعاب التي لا تزال بحاجة الى من يكشف عنها النقاب . وفي تضامن المعارف الشرقية مع طرق التحليل العلمي الغربي . ما يكفل الوصول الى ابهر النتائج واثبتها